معنى القومية العربية

بقلم الدكتور عبد العزيز الدوري

القومية العربية ظاهرة من ظواهر الوعي العربي .

وقد نشأت نتيجة عوامل متعددة اهمها :

١ – الوعي الاسلامي الذي يتمثل في محاولة إصلاح المجتمع باصلاح اساسه الاسلامي، وفي هـذا الاتجاه يتمثل الاحساس بالشعور بالكيان والاعتزاز بالتراث والاهـتمام بتخليصه من نواحي الضعف فيه . ويظهر هذا في حركة ابن تيمية وما اتصل بها . وهي في بدئها صيحة عربية وقفت في وجه السيطرة العثمانية فكانت تمثل ناحية وقوف الوعي العربي في وجه الاستغـلال الأجنبي .

ويظهر الوعي بشكل ثان يبين ان العرب اصل الاسلام وانهم محور الثقل وان الاصلاح لايكون إلا بنهضتهم وبوحدتهم . ويتمثل ذلك في حركة الكواكبي كما يتمثل في الحركة السلفية . فالحركة السلفية تعطي العرب منزلة خاصة بين الشعوب الاسلامية وهي ترى في اتحادهم وتعاونهم مقدمة لازمة لوحدة العالم الاسلامي والمقياس الأول لتحقيقها .

ووحدة الأقطار العربية بنظرها اساس تمتد جذوره الى الشعب العربي والى وحدة اللغة إضافة الى وحدة الدين ، وهي تدعو الى إحياء اللغة العربية ضمن ما تدعو اليه .

ولا يخفى ان الاتجاه الاسلامي في عامته يدعو الى التحرر والى مكافحة الموجة الغربية المتمثلة في الاستعمار والاستغلال الاقتصادي والى إحياء الكثير من الجذور التي تكوّن الذات العربية خاصة اذا تذكرنا ان هـذه الذات نمت وازدهرت في الاطار الاسلامي وتحت راية الحضارة الاسلامية .

٢ – الوعي العربي الذي يستند الى بعث اللغـة والأدب العربي والى فهم ماضي العرب والاعتزاز به . وقد اتجه بحكم بيئته الأولى في لبنان والشام وجهة علمانيـة اول الامر وساهم فيه المسيحيون في الطليعة . ثم عـاد ينظر الى التراث العربي الاسلامي يعتز به ويجد فيه المؤيدات للاتجاهات الحديثة قومية وتحررية .

ولقد كان لكل من الاتجاهين أثره في إثارة الوعي العربي والدعوة الى الاستفادة من المدنية الغربية والعلوم الحديثة .

ولقد تركز الوعي العربي على الناحية السياسية فأكد خاصة بعد الحرب العالمية الاولى على مبادىء الحرية العامـة وتقرير المصير والتمثيل الشعبي في الحكم وحرمة الرأي العام . وأكد على وحدة الاصل او الشعور بها وعلى اللغة والتاريخ المشترك . وقد كان لحركة الاتحاد والترقي اولاً أثرها . ولعب الاستعمار الغربي والعنجهية الغربية وما صاحبهما من استفزازات دورهما في تقوية هذا الشعور . ثم ان اوربا التي بعثت الآراء الحديثـة وظهرت برسالة التقدم الحديث جاءت بحركات قومية عنيفـة اظهرت نشاطاً وفعالية كان لها مدى في الشرق بما فيه الشرق العربي .

وان حاولنا ملاحظة آثار الحركة نجدها في ناحيتين بالدرجة الاولى :

١ – في تنظيم ثورات وحركات سياسية ضد الغرب لتحرير البلاد . ثم تدرجت الى الدعوة الى توحيد هذه البلاد على أساس الارث الواحد والمشاكل الواحدة والمصلحة والآمال إضافة الى النواحي الاخرى . ولا يفوتنا ان نذكر هنا برنامج الثورة العربية وأثره القوي في النفوس .

٢ – في العناية بالتعليم القومي والتأكيد على التأليف العربي واللغة العربية ومظاهر العروبة ، ويصحب ذلك التغني بامجاد العرب . ولكن هذه العناية لم تصل الى وضع فلسفـة تعليمية قومية .

وان نظرنا الى هذه النواحي نجدها تثير الشعور وتوجـه الكفاح وجهة واحدة، وهي الوصول الى الاستقلال مما جعل هذا الاستقلال لفترة من الزمن هدف القومية ولا هدف بعـده . كان الاستقلال يراد لذاته ولأرضاء الغرور القومي فقـط لا ليكون وسيلة للنهضة بالبلاد بكافة نواحيها الى المنزلة اللائقة .

وصحب هذا الاتجاه احياناً تمجيد مبهم لماضي العرب ، لم يتعد العاطفة او الاتجاه الرومانتيكي ولم ينفذ الى فهم الماضي او معرفة اصوله حتى تدهور احياناً الى رنة خاوية فسحت المجال لكل ناعق ان يصيح حسب هواه والى ان يطمس جوهر الحضارة العربية في ضجة جوفاء . بل وبلغ الحال بالقومية احياناً الى انها لم تحقق حتى التهمة التي رميت بها بانها ترجع للوراء لأنها – على ايدي بعض مدعيها – لم ترجع لشيء بل اهملت الحاضر وراحت تمجد ماضياً لا يعرف كنهه وتدفن حاضرها في خيال مرتبك فلم تحي ماضياً ولم تفهم حاضراً واستحالت احياناً الى لا شيء .

ثم ان اتجاه الحركة القومية دوماً الى الخارج واهمال الداخل جعلها سلبية وجعل الداخل مسرحاً لمختلف الموجات والاهواء. فمن نزعات ضيقة تختفي تحت اسم القومية، الى مطامح شخصية تتشح بردائها، الى اتجاهات بالية تستتر بها مما وجه لها اشد النقد وزعزع الثقة بمن تبعها وزاد في البلبلة وفوضى التفكير والاتجاه.

كما ان هذا الاتجاه الخارجي في الحركة القومية منع ان تظهر ذاتيتها فوصفت ككل بانها لا تتعدى كونها حركة عدائية للغرب او لبعض الاوضاع دون برنامج واضح او توجيه مفهوم. ومع ان مقاومة كل اعتداء او استغلال خارجي امر حتمي الا ان هذا الوصف العام يضع العراقيل امام سير الحركة القومية.

وجاءت الفكرتان الشيوعية والاشتراكية بتأكيد جديد على النواحي الاجتماعية والاقتصادية وصادفتا اوضاعاً حرجة قلقة خاصة في النواحي المادية، ولم تجدا فلسفة انشائية واضحة في البلاد العربية فانتشرتا في هذا الفراغ الهائل. ومع اننا نعتقد ان الفقر والاوضاع الاجتماعية لها الاثر الاكبر في انتشار الشيوعية الا اننا لو دققنا لوجدنا ان قادة الحركة من الطبقة المتوسطة وانها تتحمس للحركة لانها تمثل خطه وبرنامجاً ووجهة. ولذا فان تحسين الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية — على خطورته وضرورته — لا يكفي ولن يجابه هذا التيار اذا لم تكن امامه فلسفه قومية ايجابية.

وهكذا يتجلى الضعف والخطر في الحركة القومية في آن واحد. فلا معنى للحديث عن تراث نفصله عن حياتنا ولا هدف من الرجوع الى ماض لا نربطه بحاضر. ولا فائدة ترتجى من تمجيد ماض لذاته او لبعث روح شعرية وخيلاء زومانتيكية. لقد خجلنا من حاضرنا وتجاهلناه وفقدنا الثقة بانفسنا ورجعنا لماضينا نطلب العزاء والنشوة ونسعى لشحذ الهمم. وهنا مصدر الخطر اذ علينا ان نبدأ بحاضرنا نفحصه ونعرف عناصره وجذوره وبعد ذلك فقط نستطيع نقد التراث ومعرفة اثره وعندئذ نستطيع فحصه بدقة وبعث الحياة فيه. ولن نستطيع تكوين فلسفة قومية اذا لم نبدأ على هذا الاساس.

اننا لا نشك ان الحركة القومية حققت جزءاً مهماً من هدفها الاول وهو بعث الوعي العربي ومقاومة الاستعمار وتحقيق قليل او كثير من الحرية. فقد نهضت الحركة القومية بالعبء الرئيسي في معركة التحرر، ولكننا يجب ان نلاحظ نواحي الضعف التي لازمت تطورها ومنها انها بقيت ضعيفة من ناحية التنظيم وانها لم تكتسب الطابع العربي العام في كافة البلاد العربية بل كانت تعمل في اجزاء متباعدة في كثير من الاحيان ان لم تكن متنافرة. ثم انها فقدت شيئاً من صفتها الديناميكية حين اجتازت مرحلة الكفاح الاولى دون ان تعدّ للوضع الجديد. وقد بليت في كثير من الاحيان بزعامات عقيمة سارت مع التيار دون توجيه او ايمان عميق، فولدت رد فعل داخلياً شديداً ضدها. يضاف الى ذلك انها عجزت عن صهر كثير من الترسبات التي اورثتها بعض الفترات والتي وجب ان تذوب في بودقة الحركة لتصفو النفوس — وهذا ينطبق بصورة خاصة على الاقليمية الطاغية وعلى الطائفية الهوجاء. كما ان الكثيرين ممن واكبوا الحركة القومية وتولوا المهام انحرفوا عن الوجهة القومية وهم محسوبون عليها واستغلوا اسمها لاغراض لا تتصل بالحركة فأدى ذلك الى تصدع الحركة في بعض الحالات او الى تشويه مبادئها.

ويبدو بعد هذا ان الحركة القومية في عامتها — فضلاً عن مبادئها لم توسع افقها كثيراً. فهي لا تزال تعتمد بالدرجة الاولى على زمرة المثقفين ولم تكوّن لها تنظيمات شعبية واسعة. ومع اننا نشعر ان البعض حاول ذلك الا انها محاولات محدودة لم تبلغ النطاق الذي تستحقه.

وهناك ناحية دقيقة وهي ان الوعي العربي قطع مرحلة تستوجب اعادة النظر في موقف القومية من الماضي. فقد بلغ العرب مرحلة يجدر ان تسمى بمرحلة فهم النفس وفحص المناهج. فقد تكوّن الشعور بضرورة الحياة الحرة وتأكد في تقدير الماضي واستحسان صفحاته اللامعة، وليس من المفيد او المجدي ان يبقى التأكيد على اننا اصحاب ماض واصحاب حضارة واننا هدينا الشعوب وحملنا مشعل الحضارة في ظلمات العصور الوسطى. ان مرحلة الوعي تتطلب خطوة جديدة حتى في هذه الناحية، خطوة التمييز بين الحضارة العربية وبين التراث العربي او التفريق بين ما كونته عصور اليقظة العربية في ظروفها التاريخية وبين ما بقي يؤثر في حياتنا ومقاييسنا من هذا التكوين. ولتوضيح ذلك اذكر اننا ورثنا نتاجاً علمياً كان له شأن في حينه ولكنه لا يفيدنا الآن في شيء، وورثنا ادباً عربياً لا يزال ادباؤنا يتأثرون به، وورثنا لغة نتحدث بها وندون بها انتاجنا الفكري ولا يمكننا بحال ان نتخلى عن هذين او ان نتركهما دون تعهد وعناية او ان نفكر في فهم شخصية الامة التاريخية دونهما.

وبعد هذا يلزمنا دراسة تاريخنا بوجهة جديدة لا لغرض

التبجح – الذي يفعله المجهول يطلب الاعـــلان عن نفسه ، بل لغرض فهم امور اخطر . اننا بحاجة لأن نفهم نفسية هذه الامة حسب تكوينها خلال العصور مع فهم المؤثرات في ذلك لنستطيع توجيهها ، ونحن بحاجة لأن نفهم كيف عالجت هذه الامة مشاكل التنظيم الاجتماعي خلال تاريخها وكيف عالجت مشاكل الحكم وبأي منظار نظر مفكروها الى هذه المشاكل . ومثل هـــذا يتطلب – اضافة الى النظم الاجتماعية والسياسية – فهم الحركات الاجتماعية والتنظيمات الشعبية والصلة بين الحاكم والمحكوم. لقد اقتبسنا نظماً واساليب في الحكم كانت نتيجة تطورات وظروف معروفة وهي في الواقع ثمرة لنضج تلك المجتمعات وليست جذراً لها، ووقعنا بعد ذلك في مشاكل وهزات عنيفة لأننا لم نفهم جذور هذه الأمة ولم نهيء الجو الصالح لما اقتبسناه .

ولا يخفى ان كل حركة تريد الحياة تحتـــاج الى ان تطوّر اساليبها لتأخذ بعين الاعتبار التطورات الجديدة والأوضـاع المحيطة بالبلاد داخلية وخارجيـة . ولا يؤمل لحركة ان تنمو وتزدهر ما لم تنطو على فهم نواحي الشكوى والضعف وتقـديم الحلول التي تحقق الغايات المنشودة . هذا اضافة إلى ازالة نواحي الغموض والارتباك التي تلحق بها وكسح ما ينسب اليها وهي منه براء .

ويخيل الي ان النقطة الأخيرة هي نقطة الابتداء. ففي الفكرة القومية وفي الحركة القومية غموض لدى الكثيرين وتبـاين في الفهم يختلف من فرد الى فرد ومن مجموعة الى اخرى .

واول ما يجب ان يوضح هو ان القومية العربية تنطوي على حركة ذاتية وهي ناشئة عن ظروف هذه البلاد وتطورها فقد انبعثت لتحقيق اماني الأمة ويجب ان تبقى كذلك .

والحركة القومية تستند الى عقيدة تتكون من ادراك رسالة العرب الحضارية في التاريخ وايمان بحقهم في الحياة الحرة الكريمة وشعور بأن الحياة الحاضرة تكوّنت امتداداً الماضي في الأسس الثقافية والقيم الخلقية والأدبية خاصة . هـــذه كما ارى منابع العقيدة القومية وهي الدافع الأول للعمل في سبيلها .

ويجب ان يكون للحركة القومية فلسفة قومية . وهـذه ثغرة لا تزال تنتظر من يسدها ولن يضير ان نضع بعض الخطوط. وعلينا ان نميز الفلسفة من البرنامج اذ ان هذا يستند الى الفلسفة وهو محاولة لتطبيق اهدافها في ظروف معينة . ومعنى ذلك ان برنامج الحركة القومية لا يتصف بالجمود بل يراعي الظروف ويتطور بموجبها في حين ان الفلسفة القومية اكثر رسوخاً واستقراراً

ويتطلب تحديد خطوط الفلسفة القومية دراسة بعض الأمور وتحديدها واهمها ثلاثة :

١ – الذات العربية .
٢ – الموقف من التراث .
٣ – الموقف من الموجة الغربية .

وسأتناول هذه في مقال تالٍ .

بغداد **عبد العزيز الدوري**

كامل بكداش واولاده

قرطاسية وادوات المدارس

والمكاتب وجميع اصناف الورق

بيروت – شارع المعرض

تلفون : ٨٤ / ٥٥

الكتب الادبية والمدرسية على اختلاف انواعها

احدث المطبوعات ومجلات الازياء لعام ١٩٥٣

مبيع واصلاح عموم اصناف اقلام الحبر

القرطاسية بأنواعها وادوات المكاتب

تجدونها دائماً في

بيروت
شارع سوريا **مكتبة هاشم** ٢٦ / ٨٣